# رحلة صيف[1]

ذهبتُ الى الاسكندرية، وفي تقديري أن أقضيَ ثمَّتَ يومين، وفي تقدير الله أن أقضيَ شهرين. فما هو إلاَّ أن خلَت ليلةٌ حتى باغتَني داءٌ، فضربَ وأثقل، ثم تمكَّن فأعضل، ثم أناخَ بكلكل. فلمَّا صحوتُ بعد أيام من سكرتهِ، ونجوتُ من مضطرَب غمرتهِ، نهضتُ ببقية الجسم الباقية، كما تُلبس الخرقة البالية، وعرضتُ نفسي على الباخرة، فالباخرةُ تحماني إمَّا الى الشرق وإما الى الغرب. فقيل: مكانَك يا هذا الخيال! إنّ الباخرةَ لا تستقلُّ بك في زمن وباءٍ، وقد تستقلُّ بأشباه الجبال

قال الطبيب: فعليك بالمكس! حَسُنَ هواؤها، وجلَّ رواؤها. فقصدتُ المكس وما ادراك ما هي الآن

هي إحدى ضواحي الاسكندرية، قليلةُ المساكن حقيرتها، تمتدُّ سلسلة أبنيتها مستطيلةً بين شاطئ البحر والرمل. الهواء فيها جافٌّ نقيٌّ عاصف، والبحرُ شديد الخفوق لا يملُّ من مداعبة الصخور بمثل خشونة الضواري في تداعُبها. والمنظر على الجملة بديعٌ في مطلع الشمس وفي مغربها؛ وللشمس فيها تجلّياتٌ باهرةٌ خلالَ الغمام، وللغمام تشكُّلٌ وتلوُّن فاتنان، وللأُفق تأنُّقٌ عجيبٌ في ترتيبٍ قدر المنطقة التي يتحزَّم بها وابرازها في ابدع زينةٍ بين الورديّ فالبنفسجيّ فالفستقيّ فالزمرديّ فاللازورديّ

(١) كتبت هذه المقالة في نوفبر ١٩٠٢

فالسنجابيّ ، فما بينها من الالوان التي تُلطِف اجتماعها وتزيدها بهاءً على التنويع

ومن محاسن المكس أنّ الحكومةَ مهملتُها، فهي من أجل هذا لم تزل قطعةً من الطبيعة يعيشُ فيها الانسان، كما يُحبُّ أن يعيش المتمتع طالبُ الراحةِ . فاذا مرَّ في طريق ، فالطريقُ غيرُ ممهَّدَة ولا مستقيمة ولا محفوفةٍ بصفَّين من الشجر يحجبان النظرَ، كما تُحجبُ عيون الخيل التي تجرُّ المركبات ؛ بل هي ضيّقةٌ فواسعة ، صاعدةٌ فمنحدرة ، رملية فحجرية ممتدَّةٌ فمنعطفة ، فيها للسائرِ ما لا يألفهُ فيستجدُّهُ كلَّ آنٍ . وفيما حولها من المسافات المفتوحة ما ينطلق معهُ النظرُ على مدى البحر الفسيح تارةً ، وعلى مدى الرملةِ الوعساءِ طوراً

رأيتُ في خلال إقامتي بالمكس بعضَ الأشياءِ التي تجدرُ بالذكر

رأيتُ الملاّحاتِ وعلمتُ للمرَّةِ الاولى علمَ الشهادةِ والتحقيق كيف يُصنَعُ هذا « المصلح » الذى يُصلِح غذاءنا ، وينزلُ من حاجيّات حياتِنا في المنزلة الأُولى ، حتى أن الأمصارَ التي لا يُوجد فيها وتستوردُهُ من بعيد على ظهور الدواب تتداول قطَعَهُ تداولَ النقود

واني لاستحي أن أصف بالدقة كيف يُصنع الملحُ ، لأنَّ أجهلَ الناسِ يتصوَّرُهُ . ولكنني لا أخاف القولَ إنَّ البلادةَ مستحكمةٌ في قلوبنا ، نحن الشرقيين ، متمكنةٌ من لحمنا ودمنا الى حدّ أنّنا لا نتكلَّفُ الرؤيةَ ولو عن كَثَبَ ، لنعلمَ مِن دقائق الأمر ما لم يُلمَّ بهِ تصوُّرُنا إلماماً تاماً من مجرّد الأخبار

رأيتُ أيضاً مصطَنعَ الحجارةِ الضخمة المربَّعةِ التي تُعَدُّ لإتمامِ جدارِ الرصيف الشرقي بالاسكندرية، وقد تمَّ منها ألوفٌ يجدُها الناظرُ معروضةً على خطٍّ مُستطيل، وهي تُحمَلُ على ظهورِ البواخرِ بواسطةِ مرفعةٍ بخاريةٍ منصوبة على رأس صخرة متقدّمة فى البحر

رأيتُ حيث ينتهي النظر من المكس شبه قريةٍ ذات خضرةٍ تدعى « العجمي » ناقني عن تفقُّدها ضعفُ الجسم ؛ فسألتُ أحد ساكنيها، فقال إنَّها لا مزيَّةَ لها عن سائر القرى المجاورة الاَّ بشيءٍ : وهو أن البحرَ يمدُّ هناك ذراعاً، ثمَّ يعطفهُ عطفة الضمّ والتطويق، فينزع قطعةً من الأرض عن أمِّها، ويُحدث منها جزيرة . وفي الجزيرة مقامٌ لوليٍّ يُعرف بالعجمي، وهذا المقامُ غاصٌّ بالمراكب الصغيرة المُهداةِ اليهِ نذوراً، والنواتي يعتقدون أنهُ شفيعُهم، وأنهُ ببركة هذه النذور يرقُّ لهم ويُنقذهم من أخطار البحر

ما أحوجَ الانسانَ الى الإيمان !

هذا كلُّ ما رأيتهُ من جانب ؛ أمَّا من الجانب الآخر، وهو الذي ينتهي اليهِ « الترام » قادماً من الاسكندرية، فالذى استلفتني أمران :

أحدهما وجودُ حمَّام هناك واسع متقن، ومنتدَيَين للشرب، هذا من خشبٍ قائم فوق الحمَّام، وذاكَ مبنيٌّ من الحجر على شكل سرادق رحيب، بينهُ وبين الحمَّام خطواتٌ . وفي كل مساءٍ يستقدم أصحاب هذين المنتدَيَين جوقتَي موسيقى لإطراب الحضور، الواحدة منهما أرمنية تضرب ألحاناً شرقية وألحاناً غربيـة، والأُخرى إفرنجية تضربُ ألحاناً افرنجية

مختارة باتقان لا تبلغهُ الأولى. ولكنّ الحانة الأولى التي فوق الحمّام يزدحم الناس فيها ألوفاً كلّ يوم ، بخلاف الأخرى التي بجانبها ، فلا يجتمع فيها الاّ أفرادٌ . ولو شئتُ أن أُفصّل أسباباً لنجاح هذه وفشل تلك ، لفعلت؛ ولكنّ مذهبي أن السبب الذي ترجع اليه تلك الأسبابُ بجملتها هو نفس السبب الذي تشقى به أحياناً أمةٌ صالحةٌ وأرضٌ خصبة وعملٌ متقَن ، وتسعد بهِ أمةٌ فاسقةٌ وأرض قحلةٌ وعمل ناقصٌ . فسمّهِ ماشئت

ويذكرني نجاحُ قهوةً الحمّام قهوة أخرى أنشئت في المنازل منذ تسع سنين ، اي حينما مُدّ الخطُّ الحديديُّ الى المكس ، فكنّا إذا شئنا التنزُّهُ ركبنا القطارَ الى المنازل ، ووجدنا الناسَ مزدحمين وقوفاً وجلوساً ، والمكاسبُ تتدفقُ على صاحب المكان من كلّ صوب . فلما افتقدتها هذه المرّة وجدتُ خربةً ساكنة يتحرّكُ في بعض جوانبها آناً بعد آن فاعلٌ يحمل تراباً أو صانعٌ يضربُ قطعة خشب ، كما تتحرّكُ الجرذانُ الجسيمة في بعض الخرائب العتيقة

ذلكَ أنّ وجود «الترام» قتلها ، لأنهُ عطّل الخط الحديدي، فأبطلهُ ، و « الترام » لا يمتدُّ اليها، بل هو بعيدٌ عنها .فأيُّ سببٍ نردّ اليه أمثال هذه الانقلابات التي تكون في عالم الغيب ثم تفاجئُ من حيث لا تظن

أما الأمر الثاني الذي استوقفني وشجاني ، فهو ما رأيتهُ على كثيبٍ ممتدٍّ شبه القَتَبْ بين البحر وبين طريق « الترام » من المدافع القديمة ادوات الدفاع عن مدخل الثغر

تدلُّ مراكزُ هذه المدافع على انها كانت منصوبةً وراء القَتَب ، كما

تُنَسِّقُ الإِبَرُ في ورَقَتِها، وكلُّها من الطراز الضخم، اذا اقبل عليها الناظرُ من بعيد ظنَّها بعض الوحوش الضارية من اسدٍ ونمرٍ وفهدٍ،فاذا دنا منها لم تزُلْ مهابتها من قلبه، ولكنه رأى الموت قد مدَّ عليها كفناً من اشعّة النهار ونداء الليل،ثم طبع عليها اصابعَهُ،فهي منقَّطة بنقط صفراءنحاسية، وخضراء طحلبيّة، على قشر عاتم صادئ، ومنها ما انكسرت له ساق، فانقلب على جانبهِ، ومنها ما اصابتهُ ضربة في شفتهِ، فانشقَّت والتوَت، ومنها ما أدلى بعنقهِ الطويل الى التراب كأنه يعضُّهُ في احشائهِ

منظرُ موتٍ وخراب وعار.

دنوت من هذه الاشياء وانا اسيفُ أُرسل النظرة الى الغيب ،فأرى بها أُمم الشرق كلَّها مجتمعة تدبُّ دبيب الحشرات لاصقةَ الجباه بالارض من الضعف والجبن ودناءة المطالب، وأطلق الزفرة من صدري، فأؤبن بها مجداً عظيما ملأ العالم زمناً، ثم دفنهُ ذووه في بعض زوايا التَّرك والاهمال، ووكلوا الى الذين اُبتلوا بهِ قديماً أمر البحث عنهُ وجلاءِ آثاره التي غالها الصدأُ وغشيَها نبات النسيان، حتى نخرها الى الصميم، واذرفُ العبرة فأبكي سماء أنطوت طيَّ الجلباب، ونجوماً غارت في التراب، ومعالم عامرة صارت الى تباب

ثم وضعتُ رجلي على عنق الكبير من تلك الضواري الجامدة، وأثقلتُ وطأتَها عليهِ وقلتُ : يا ايها الأسد جُعِلْتَ للزئير فاستنبحوك، وللافتراس فكمّوك، وللوثب فقيّدوك؛ فلينسجِ العارُ عليهم مثل ما نسج على جلدك .فاذا نهشتك الايامُ نهش الكلاب الشلوَ، فليشهد عليهم كلُّ

أثرٍ في البلاد من بعدك . فانهم خفضوا رايةً ، واضاعوا جيشَ بَرٍّ ، وأغرقوا اساطيل بحر، وأذلوا أمة ، وأضاعوا وطناً

هذا كل ما في المكس من قديم وحديث وهو قليل؛ غير ان مناظر الطبيعة فيها غاية ما يُتمنّى؛ ونقاوة الهواء وصفاء الطبع وسلامةُ المعيشة من المصطلحات المزعجة المتعبة افضلُ وسائل التعافي والسرور ونشاط النفس

**خليل مطران**

* * *

**الزهور** — في « ديوان الخليل » بضعُ صفَحاتٍ شعريّةٍ عنوانُها « حكاية عاشقَين » بدأت في سنة ١٨٩٧ وانتهت في سنة ١٩٠٣ . والمقالةُ التي نشرناها في الصّفحاتِ السابقة انّما كتبها « خليلٌ » في أوخر عهدهِ بتلك الحكايةِ يومَ ذهبَ الى رَملِ الاسكندرية مستشفياً من داءَين كانا قد ألمّا بهِ ووصفَهما وصفاً بديعاً ملئهُ عواطِفُ نفسٍ حزينةٍ يائسةٍ في قصائِدَ من أجود الشعر نختارُ الأبيات التالية من إحداها ؛ قال :

إنّي أقمتُ على التعلّةِ بالمُنى ... في غُربَةٍ قالوا تكونُ دوائي
إن يَشفِ هذا الجسمَ طيبُ هوائِها ... أيُلطِّفُ النّيرانَ طيبُ هَواءِ
عَبَثٌ طوافي في البلادِ وعِلّةٌ ... في عِلّةٍ مَنفايَ لاستشفاءِ
متفرّدٌ بصبابتي متفرّدٌ ... بكآبتي متفرّدٌ بعنائي
شاكٍ إلى البحرِ اضطرابَ خواطري ... فيُجيبني برياحهِ الهوجاءِ
ثاوٍ على صخرٍ أصمَّ وليتَ لي ... قلباً كهذي الصخرةِ الصمّاءِ
يَنتابُها موجٌ كموجِ مكارهي ... ويَفتُّها كالسُقم في أعضائي
والبحرُ خفّاقُ الجوانبِ ضائقٌ ... كَدَراً كصدري ساعةَ الإمساءِ

تغشى البريّةَ كدرةٌ وكأنّها صعِدتْ الى عينيَّ مِن أحشائي
والأفقُ معتكرٌ قريحٌ جفنُهُ يُغضي على الغمرَاتِ والإقذاءِ

* * *

ولقد ذكرتُكِ والنهارُ مودِّعٌ والقلبُ بينَ مهابةٍ ورَجاءِ
وخواطري تبدو تجاهَ نواظري كَلْمى كدامِيةِ السَّحابِ إزائي
والدَّمعُ من جفني يَسيلُ مشعشَعاً بسنى الشعاعِ الغاربِ المترائي
والشمسُ فى شفَقٍ يَسيلُ نُضارُهُ فوقَ العقيقِ على ذُرًى سوداءِ
مرَّت خلالَ غمامتَينِ تحدُّراً وتقطَّرتْ كالدَّمعةِ الحمراءِ
فكأنَّ آخرَ دمعةٍ للكونِ قد مُزِجَتْ بآخرِ أدمعي لرثائي
وكأنني آنستُ يَومِيَ زائلاً فرأيتُ في المرآةِ كيفَ مسائي

## ﴿ الإنتقاد ﴾

بينَ نَقْدِ المؤلّفات هنا، ونقدِها هناك فرقَانِ: أحدُهُما يتعلّق بالنّاقِدِ والآخر يتعلّق بأثر النقد فى الأذهان. أمّا الأوّل فهو أن الناقد هناك ينتقد الكتاب من حيث ذاتِهِ؛ فلو لم يكن للكتاب صاحبٌ لا نتقدَهُ، وهنا ينتقدهُ باعتبار شخص مؤلفِهِ. أي أنهُ ينتقِدُ الكتاب بل صاحبَ الكتاب فى كتابه. وأمّا الثاني، وهو أثرٌ طبيعي للأوّل، فهو أنَّ للانتقاد هناكَ أثراً ظاهراً فى الكتاب من حيث رواجه وكساده، وشهرتِهِ وخمولِهِ. فكما يقول المنتقد يقول الناس بقولِهِ. وهنا يمرُّ الانتقاد بالاذهان مرًّا فلا يبقى من آثارِهِ فيها إلاّ أثرٌ واحد وهو أن الكتاب جليل القدر سني القيمة!!

مصطفى لطفى المنفلوطي